السخرية الثقافية والفكاهة في شعر العصر المملوكي الثاني -ديوان ابن سودون البشبغاوي- نموذجاً

أ. آلاء عباس وهبه عديل(*)

الملخص:

تناول ابن سودون البشبغاوي شاعر العصر المملوكي الثاني موضوع السخرية والفكاهة بوصفها قوالب جمالية وتعبيرية تناسب رؤيته عن عصره ومجتمعه وتتحملها، فقد انقادت نفسه لأنواع من "الخراع" أي الهزر والسخرية تنوعت موضوعاتها: بين الذاتية والاجتماعية والثقافية والسياسية، ويقف هذا البحث على الرؤية الساخرة والفكاهية لفعل الثقافة في عصره بتنوع منابعها عند الشاعر ما بين تراثية ودينية ، فعمد إليها الشاعر يفككها من قوالبها الجادة الرصينة ويحيلها قوالب للسخر والفكاهة، يبتغي بها الإضحاك والإصلاح ما استطاع إليه سبيلا.

ينهض البحث بتتبع ظاهرة الفكاهة والسخرية الثقافية ووصفها من خلال النصوص الإبداعية في ديوانه الشعري وتحليلها للوقوف على منابع الثقافة التي امتاح منها، وتستكنه دلالاتها ومضامينها بغية استكشاف آراء الشاعر وأفكاره عن عصره ومجتمعه الذي اشتبك به وتعالق مع مجرياته بعلائق المثقف الناقد تارة أو المستجيب والمنسجم تارات أخرى.

يتوخى البحث منهجية وصفية تحليلية تسترشد بنظرية التلقي و آليات القراءة الثقافية، ومكمن جدته هو التعرض لشخصية إبداعية _ابن سودون البشبغاوي_ قصرت أغلب إنتاجها على السخرية والفكاهة والتزمته سبيلا للتعبير على مأساوية العصر وجموده وخلوه _غالبا _من دواعي الضحك على المستوى الجمعي عموما.

الكلمات المفتاحية: السخرية الثقافية، العصر المملوكي الثاني، ابن سودون البشبغاوي، التراث.

- **المقدمة**

عانى العصر المملوكي الثاني من ظروف سياسية واجتماعية، وتأثر بمرجعيات فكرية وثقافية، جعلته _بامتياز_ عصرا للاضطهاد والقمع، يكسوه الجمود والجهل، ويرفل أبناءه في ثياب الفقر والجوع والفقر والحاجة، وقد دفعت هذه الظروف بعض لسانات الأمة من الشعراء والكتاب، أن يندمجوا مع هذه الظروف ويتأثروا بهذه الأزمات، فقد أصبح الشاعر والكاتب في العصر المملوكي الثاني ابنا صادقا لمجتمعه، ينفعل بأحداثه ويرتدى رداء شعبه فيتوجه إليه بشعره ونثره، يقصد رضاه و تفاعله، كما يقصد الإصلاح والتقويم ما استطاع، وقد استعان علي بن سودون

(*) باحث ماجستير بقسم اللغة العربية- كلية الآداب جامعة الوادي الجديد.

البشبغاوي(ت:٨٦٨هـ) بالفكاهة والسخرية قالبا يحوي موضوعات عصره جُلَّها ، فضمن لنصه القبول والانتشار، ولنفسه التعبير والإفصاح دون أن يكلِّفه تعبيره بطش السلطة وعسفها، وهو شاعر مصري المولد تطاول وعلا في فن الفكاهة والسخرية، وقصر عليهما أغلب شعره ونثره المبثوث في ديوانه الموسوم بـ (نزهة النفوس ومضحك العبوس)، ويتكون هذا الديوان "من شطرين: الشطر الأول يشتمل على المدح والغزل وغيرهما من الجديّات، والشطر الثاني: يشتمل على أنواع من الهزليات، وفيه خمسة أبواب؛ الأول في القصائد والتصاديق، الثاني في الحكايات الملافيق، الثالث في الموشحات الهبالية، الرابع في الدوبيت والزجل...، الباب الخامس في التحف العجيبة والظرف الغريبة"[١]. فجعل الفكاهة والسخرية وسيلة وغاية وألف في كل فنون الهزل والدعابة والتهكم في هذا الديوان، "ولسنا نعرف شخصا قبل ابن سودون كتب ديوانا من الشعر كله يأخذ مأخذ الفكاهة، ...أو يحتكرها كل هذا الاحتكار"[٢] ؛ لذا وقع اختيار الباحثة على هذا الشاعر ليكون مثالا وشاهدا على هذا الغرض في العصر المملوكي الثاني و الذى نال حظا واسعا من الانتشار فيه .

وكان عنوان هذا البحث هو **السخرية الثقافية والفكاهة في شعر العصر المملوكي الثاني - ديوان ابن سودون البشبغاوي- نموذجا**

- **دوافع البحث:**

١- أن ظاهرة الفكاهة والسخرية في العصر المملوكي الثاني سمة بارزة في هذا العصر لم تدرس دراسة كافية لذا فهي جديرة بالبحث والدراسة .

٢- استنطاق النصوص عن ثقافة العصر ومباحثة دلالتها ومضامينها.

٣- تتبع موقف الشاعر في مواجهة أفكار رجال العلم والدين والثقافة في عصره من خلال تصويره الشعري والنثري لهم.

- **أهمية البحث:**

وتكمن أهمية هذه الدراسة في تناول الفكاهة والسخرية في أحد أكثر عصور الأدب عنايةً بهما واهتماما بموضوعاتهما وهو (العصر المملوكي الثاني) وهو عصر قليل الطروق وفى حاجة ماسّة للدراسة والبحث والمكاشفة، كما أن البحث يكشف عن أحد شعراء الفكاهة والسخرية المرموقين في هذا العصر وهو ابن سودون البشبغاوي، ويستكشف من خلال الفكاهة والسخرية الثقافية رؤيته وأفكاره ومنابع ثقافته، وموقفه من رجال العلم والدين في عصره.

[١] نزهة النفوس ومضحك العبوس، ابن سودون البشبغاوي، تح: منال محرم عبد الحميد، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٢: ٢٠١٠م،صـ٣٣

[٢] في الشعر والفكاهة في مصر، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ، د.ت صـ١٠٠

- **أهداف البحث:**

١- دراسة موضوعة الفكاهة والسخرية الثقافية عند ابن سودون البشبغاوي دراسة تحليلية فنية تقف على موضوعاتها وقضاياها.
٢- الكشف عن الأدوات والسمات الفنية لنص ابن سودون الفكاهي والساخر.
٣- الكشف عن معالجة ابن سودون لأشكال التراث ومحايثتها لتوافق رؤيته الساخرة والفكاهية.
٤- الكشف عن تأثير أحوال البيئة وأحداث العصر على فكاهة وسخرية ابن سودون في شعره ونثره.

- **أسئلة البحث:**

١- ما المقصود بالفكاهة والسخرية الثقافية؟
٢- ما مصادر الثقافة وأشكال التراث التي عبر عنها ابن سودون في نصوصه الساخرة ؟
٣- ما المعالجات الفنية التي وظفها ابن سودون لإعادة بناء التراث في نصوصه الساخرة؟
٤- ما الأساليب والموضوعات التي استغلها ابن سودون للسخرية من العلماء والفقهاء في عصره؟
٥- كيف أثرت البيئة وأحوال العصر على سخرية ابن سودون وفكاهته؟

- **مشكلة البحث**

لا يخفى على باحثي الأدب حاجة العصر المملوكي ولا سيما العصر المملوكي الثاني للبحث والدراسات العلمية الجادة التي يمكنها أن تكشف عن أدب هذا العصر، وتبحث في جوانبه الفنية والإبداعية، وحين تتعدد وتتنوع وتتكامل هذه الدراسات الجادة فإنها يمكن أن تقدم رؤية جديدة وحقيقية ومتكاملة عن منجزات هذا العصر الأدبية؛ ولهذا آثرت الباحثة أن يتخصص البحث في دراسة موضوع الفكاهة والسخرية الثقافية ليكشف عن جوانبهما الموضوعية والفنية، وتنبني الدراسة على عقلية شعرية بارزة في هذا المجال لتكون مثالا شاهدا على هذا الغرض الشعري الذى شاع وساد في العصر المملوكي الثاني معبرا عن جوانب واقعية: اجتماعية وثقافية وسياسية وحوادث إنسانية بثّها الشعراء في تضاعيف قصائدهم، وبهذا تكون رؤية البحث ومشكلته هي تلبية حاجة العصر المملوكي الثاني للدراسة من خلال التركيز على واحد من موضوعات الشعر في حينه (موضوع الفكاهة والسخرية الثقافية) وتتبع ذلك في شعر أحد شعرائه البارزين (ابن سودون البشبغاوي).

- **منهج البحث**

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي؛ ليتم من خلاله وصف ظاهرة السخرية الثقافية والفكاهة في إطار زمنى هو العصر المملوكي الثاني الذى يمتد من (٧٨٤- ٩٢٣)هـ، كما يدرس البحث - بالمنهجية ذاتها - صدى هذا الغرض عند ديوان أحد شعراء العصر البارزين هو ابن سودون البشبغاوي؛ ليقف على وصف الظاهرة وتحليل السمات الفنية لنص السخرية الثقافية والفكاهة عنده.

- **تقسيم البحث**

ينقسم البحث إلى مقدمة تتناول عنوان البحث ودوافعه وأهدافه وأهميته وأسئلته ومشكلته ومنهج الدراسة فيه، ومدخل و مبحثين: المبحث الأول؛ هو أشكال السخرية المأخوذة من التراث: وينقسم إلى توطئة ومطلبين: السخرية المأخوذة من التراث الأدبي، والسخرية المأخوذة من التراث الديني.
والمبحث الثاني؛ وهو ألوان السخرية من موضوعات العلماء وأساليبهم: وينقسم إلى توطئة ومطلبين :السخرية من الموضوعات، والسخرية من الأساليب.
ثم خاتمة حملت النتائج والتوصيات، وثبت المصادر والمراجع.

- **السخرية الثقافية والفكاهة:**

- **مدخل:**

لما كان الأدب الفكاهي الساخر هو "كافة الآثار اللغوية التي تثير فينا بفضل خصائص صياغتها ونظرة مبدعيها إلى الحياة إحساسات معينة"[٣]، فقد اتسع النص السودوني الساخر لأنواع عدة من السخرية والفكاهة تجاوز الرؤية الذاتية والاجتماعية إلى أخرى ثقافية فكرية، و إذا كانت الثقافة تعني "الفكر بقطاعاته المختلفة من لغة ودين وأدب وتاريخ وتراث، وهي مرتبطة أساسا بأمة ما، يتمثل فيها ضميرها وروحها،...، فلا يمكن أن تكون الثقافة مستوردة في أساسها حيث ترتبط بكيان الأمة ومفاهيمها وقيمتها الأساسية" [٤]، فإن السخرية الثقافية التي يقصدها البحث هي دراسة المباشرة/ الرؤية الساخرة التي يسترسل الشاعر والكاتب ضمن إطارها في التهكم من الإرث المعرفي والفكري والديني سواء طرائق تناول الموضوعات وآلية السبك والبناء التقليدي المكرر، أو حتى الموضوعات المطروقة التي لا تلقي بالا لمشكلات المجتمع وهمومه ،وتنفصل عن واقعه وأزمته، فهي مهلهلة بالية رثة واقفة عند الأصوليات والجذور لا تبارحها.
كما يسلط ابن سودون أسلحة هزره للنيل من القيم العربية ومكتسباتها العلمية والدينية والأخلاقية التي تحولت على عهده إلى قيود تكبل الجماعة العربية، وتشعرهم بالعجز عن بلوغها ،فضلا عن التمسك بها أو مجاراتها، فقد بعدت الشقة بين العربي والكرم _مثلا _ لشيوع الفقر وسيطرة الظلم والفساد المؤدي إلى الجوع وضيق ذات اليد، وتحولت قيم المرءوة والشجاعة والفخر _ مثلا_ إلى بطولات مزيفة لا يبلغها الإنسان المملوكي إلا بقدر ما يسعفه خياله وتصل به أحلام يقظته، واستحالت العاطفة الشعورية الإنسانية سواء في أغراض كالغزل والرثاء إلى نص مفارق ينقض

[٣] عبد العزيز شرف، الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، ط١: ١٩٩٢م، صـ١٤.
[٤] أنور الجندي، الثقافة العربية المعاصرة في معارك التغريب والشعوبية، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦١م، صـ١٤.

النصوص القديمة ويقيم على حطامها أغراضه المفارقة والساخرة الجديدة، فكان مكمن الداء الذي انطلق منه ابن سودون يعالجه بالسخر والفكاهة، ويقومه بالتهكم اللاذع والهزر.

ويعمد الشاعر إلى امتصاص بعض هذه القيم وقلبها وعكسها فيجعلها تسير في طريق مضاد تماما لما تطمح إليه الأيديولوجيا العربية، ويسير إلى الإغراب والدهشة عندما يقلب شعورا إنسانيا عاما كالحزن والألم إلى فكاهة وضحك ودعابة كما ستأتي الإشارة إلى رثاء أمه بنص فكاهي ضاحك.

استحقت الثقافة العربية المعرفية الجمعية وممثلوها من العلماء والمثقفين ورجال الدين والقضاة في العصر المملوكي الثاني موقف ابن سودون الساخر التهكمي، ذلك أنها تحللت من العقل والمنطق ومجاراة الحكمة والفطنة، وركنت إلى الركود والضلال وتابعت الأهواء حد الجهل والشطط، وتجاهلت أحوال العامة وتخلت عن دورها في دفع الضر عنهم ومجابهة ظلم الحكام وبطشهم، وسلكوا إلى ذلك طرقا لعل من أهمها: ترك مساحات واسعة من الحقل المعرفي لتُسِيطر عليه البدع والخرافات والأباطيل، و توقف الاجتهاد الفقهي و الاكتفاء بشروحات الفكر الأصولي أو اختصار مطولاته، فضلا عن تحلل بعض فقهاء العصر ورجال الدين من الأخلاق والقيم، وتركوا الزمام لأهوائهم وشهواتهم النفسية، مما جعل مكانة العلماء ومنزلتهم تتردى إلى مدارك الوضاعة والجهل وتتهاوى منازلهم في عيون الناس ، ذلك أنهم "بدلا من أن يقوموا بدورهم في القيادة الروحية لشعبهم، وفي تنمية الوعي بحقوقهم راحوا يرددون على مسامعهم هذا النوع الذي يدعو إلى الزهد والحرمان، ويروجون له في بيئات الفقراء المحرومين والجياع أصلا..."[٥] فدأب شعراء العصر عموما على أن يقابلوهم بالهجاء والذم، وأن يتلقفهم ابن سودون خصوصا بالسخرية والفكاهة والهزء.

١. المبحث الأول: أشكال السخرية المأخوذة من التراث:

- **توطئة:**

لما كان التراث "هو ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد وعادات وتجارب وخبرات وفنون وعلوم في شعب من الشعوب، وهو جزء أساسي من قوامه: الاجتماعي، والإنساني، والسياسي، والتاريخي، والخلقي، ويوثّق علائقه بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه"[٦]، فقد شكل حضوره ثيمة موضوعية كثيفة ومتواترة في نص ابن سودون يوظفها توظيفا عميقا من خلال "استخدام معطيات التراث استخداما فنيا إيحائيا وتوظيفها رمزيا لحمل الأبعاد المعاصرة للرؤية الشعرية للشاعر، بحيث يسقط الشاعر على معطيات التراث ملامح معاناته الخاصة..."[٧] فيسترفده ويستوعبه ويتفاعل معه من أجل إنتاج المعاني التي يقصد إليها، وغالبا ما يكون هذا التأثر

[٥] محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠١٥ ، صـ١٩٣.

[٦] جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢ :١٩٨٤م،صـ٦٣.

[٧] علي عشري زايد، توظيف التراث العربي المعاصر في شعرنا المعاصر، مجلة فصول، مجلد١، عدد١، أكتوبر، ١٩٩٥، صـ٢٠٤.

والتفاعل من خلال قلب معانيه وعكسها إنتاجا للضحك وتدشينا للفكاهة والسخر وإمعانا في التهكم والهزء لغايات الإصلاح والتقويم والتنفيس.

وتتنوع مصادر التراث التي يوظفها ابن سودون ما بين مصادر أدبية ودينية فيمتص من نصوصها امتصاصا جديدا جاعلا النص ينقلب على نفسه فيتحول إلى النقيض، من الإيجاب إلى السلب والعكس.

وقد عاون الشاعر على امتصاص الآثار الواردة في نصوصه ثقافته الموسوعية التي دأب الناس في عصره على اكتساب بعضها، فنراه ملما بالأدب والمنتجات الأدبية، وله حظ من علوم الفقه والنحو والفلسفة، ولا يغيب الامتصاص الديني المتولد عن النصوص المقدسة كالقرآن والسنة، وليس هذا بمستغرب كونه كان إماما لبعض مساجد القاهرة ودمشق، واحترف الكتابة زمنا كما يحكي عن نفسه[٨].

١) المطلب الأول :السخرية المأخوذة من التراث الأدبي:

يشكل **المصدر الأدبي** معينا ورافدا مهما وواعيا عند ابن سودون لا يقف عند مجرد الامتصاص والتضمين بل يتحول معه الأثر الممتص إلى معنى جديد يرفد التجربة الساخرة ويعضدها عند الشاعر ويستشرف معاني جديدة في النص إذ إن "التراث العربي القديم، لا معنى له، إن لم يكن أداة لتوليد أصالة جديدة، مرتبطة بالأصالة التليدة ومغايرة لها في الوقت نفسه"[٩]، ولا يعني هذا أن الديوان خلا من التناص السلبي الجامد الذي لم ينتج معنى ولم يستحدث دلالة، إلا أن الدراسة تهتم بما أنتجه من مستجدات المعاني فيما استرفده من نصوص فنتلمَّسها ونقتفي أثرها في الديوان.

يستدعي ابن سودون التراث الأدبي بأشكال عدة: فيسترفد النصوص الأدبية ويوظف المعجم الشعري، بلغته وموضوعاته، وينقلها من تجربتها الخاصة إلى دائرة معنى جديد تهكمي ساخر أو فكاهي ضاحك، وقد تنوع الاستدعاء عنده بين تضمين مباشر أو تلميح غير مباشر، وفي كلٍ لا يمكن إنكار التفاعل النصي والتداخل الذي نجده حاضرا في أغلب نصوصه مع نصوص أخرى سابقة أو معاصرة له، ومعيار المعالجة في هذا الباب ليس كل امتصاص أو تناص وإنما ما رفد جانب السخر والفكاهة أو وظفه ابن سودون في السخرية من التراث ومكتنزاته كرديف للسخرية من العصر والمجتمع ومنطلقاته؛ ومن أشكال هذا التفاعل النصي مع نص تراثي سابق هو قوله في افتتاح باب "القصايد والتصاديق" " **سبحان الله العظيم الذي خصص بعموم نعمه من قيد آماله على مُطلق كرمه، طيّب الأوقات بطيب الأقوات...نوَّر بصر من شاء فشاهد الأطعمة في الأوقات**

---

[٨] راجع: الديوان، صـ ٣٢.

[٩] عبد الوهاب البياتي، الشاعر العربي المعاصر والتراث، مجلة فصول، مجلد١، عدد٤، يوليو ١٩٨١، صـ٢٢.

المشهودة، فلم تقصر همَّته عن الموائد وهي ممدودة، بل زاحم عليها لما عذُبت مناهلها الموروده؛ *والمنهل العذب كثير الزحام*"[١٠]

وقوله "***والمنهل العذب كثير الزحام***" مأخوذ من بيت لبشار بن برد يقول فيه:

يَزدَحِمُ الناسُ عَلى بابِهِ وَالمَورِدُ العَذبُ كَثيرُ الزِحام[١١]

وهو تناص نتج عن ثقافة ابن سودون الأدبية والتي أثرت بدورها على سخريته، ويتضح المعنى المدائحي الذي يكتنزه بيت بشار بن برد، إلا أن ابن سودون استعاض عن هذا المعنى بمعنٍ جديد هو وصف موائد الطعام ومدح أطباق المأكولات عليها، فهي ممدوحه الأسمى و الأجدر الذي يحتل فضاءاته الشعرية والنثرية على السواء، فكأنه أعاد الصورة إلى منبعها الأول من وصف المحسوس/ (مدح الطعام) لتستعيد نفسها التي ذوبتها الاستعارة في نص بشار في الإشارة إلى معنوي/ (مدح صفة الكرم)، وهكذا يقلب ابن سودون نواميس الخطاب اللغوي داخل معالجته للنص التراثي الأدبي.

يتوجه النص المدحي الجديد للطعام فيمدحه ويثني عليه، وأي شيءٍ في العصر المملوكي الثاني بلغ غاية ما بلغه الطعام عند ابن سودون، فهو الممدوح الأوحد والمحبوب الأول بلا مدافع.

ولا ينفك ابن سودون عن رؤية من سبقوه من الشاعر في العصر المملوكي؛ فيمتص من نص صفي الدين الحلي، ويتفاعل معه في نصه الذي يقول فيه:

يا من تفرق نظمي في شمائلهم ما استجمعت لي بكم في الدهر شملات
قضيت في مطلكم عمري، وصبري قد قضى وما قضيت منكم لُبانات[١٢]

وظاهر امتصاصه من قول الحلّي:

قد قضينا العمر في مطلكُمُ، وظننَّا وعدَكم كانَ منَاما
أإذا مُتنا نَرَى وعـــــدكـــــم، أم إذا كنا ترابا وعظاما؟[١٣]

وإن كان المعنى عند (صفي الدين) قد نحا منحى الجِّد والتبس بعاطفة العتاب والشكوى ، فلا يبعد عنه ابن سودون إلا أن شكاته ليس من محبوبة نافرة أو ممدوح مترفّع، وإنما من الكنافة التي

[١٠] الديوان ، صـ١٤٢

[١١] السيد محمد بدر الدين العلوي، المختار من شعر بشار (اختيار الخالدين) ،شرحه: أبو الطاهر التجيبي البرقي ،لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٣٤م ، صـ٩٥

[١٢] الديوان، صـ١٥٨.

[١٣] صفي الدين الحلي، ديوان صفي الدين الحلي، تحقيق: كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت، (د.ت) ، صـ٥٨٣.

ترفعت عنه فلا تصله ،وسائر الحلويات التي يطمح إليها الشاعر ولا يدركها، والشاعر إذ يوظف التراث الشعري في سخريته من الجوع وتشوقه للطعام لا يقترب من الفكاهة إلا بقدر ما يفكك التراث ويهدم مسلماته ويعيد تشكيله بما يتلاءم مع عاطفته الناقمة _بطبيعة الحال_ على عصره ومجتمعه وزمانه.

ويعضد هذه الرؤية ويرفدها، امتصاص الشاعر لقصيدة جليلة لغة ومعنٍ ومقاما، هي قصيدة البردة لكعب بن زهير_ رضي الله عنه_ التي قالها في حضرة النبي_ صلى الله عليه وسلم_ وفي مسجده الشريف وبين صحبه من المهاجرين والأنصار _رضي الله عنهم_، فيقول ابن سودون:

في الأرضِ يظهرُ نورُ الشمسِ والقمرِ قد صحّ ذلك في بدوٍ وفي حضرِ

وكل شخصٍ وإن طالت أصابعَهُ فأصله قيل من أنثى ومن ذكر

يتناص فيها مع قول كعب بن زهير _رضي الله عنه_ في مقطع اعتذاره للنبي:

كُلُ اِبنِ أُنثى وَإِن طالَت سَلامَتُهُ يَوماً عَلى آلَةٍ حَدباءَ مَحمولُ[١٤]

فالقصيدة حازت في التراث العربي والإسلامي مكانة عالية شريفة ودأب الكتاب على شرحها و الشعراء على معارضتها ومشاكلة نظمها معنٍ ومبنٍ، ولعل البوصيري أشهر من عارضها في العصر المملوكي وفي الشعر العربي قاطبةً ولم يكن بعيدا عهده، ولا غائرا ذكره عن ابن سودون، وقصيدته التي ضارعَ بها بردة كعب ونظمها على شاكلة بردته الشهيرة:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مزجْتَ دمعا جَرَى من مقلةٍ بـدمِ[١٥]

ليست غائبة عن ذهن شاعرنا وهي معروفة ذائعة بين الناس، لم يستهدف ابن سودون بردة كعب بن زهير فحسب، وإنما كل "الخراف المهضومة" التي تشكلت عبر امتصاص هذا النص كانت عرضة لاستهداف ابن سودون، استهداف ميتانصي _إن جاز التعبير_ لقد تخيَّر ابن سودون نصوص التراث بعناية ، وراح يقتنص منها أجلَّها ذكرا وأبعدها أثرا، لأنه أراد أن ينتقم لنفسه ومجتمعه بأن يوقف اللغة _التي كانت سلاح الشاعر في وجه ذوي السلطان_ موقف المحاكمة، ويستعرض أمامها منتجاتها الثمينة من شعر شعرائها الفحول الكبار، ثم يقوضه ويقلب عاليه سافله، ويحيل لغته مهرجا ملونا مضحكا بديلا عن زي الجدّة والصرامة، وينتزع الفخر المطمئن من داخلها ويقلبه إلى قلق المعنى، وزعزعة الراسخ والمسلم.

وليست النصوص الأدبية فقط من استرعت عناية ابن سودون، بل توجه تلقاء المعجم الشعري من جهة الموضوعات المطروقة واللغة الشعرية ، فيقلب مجالها، ويغير نسقها الفحولي الصارم إلى

---

[١٤] كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، حققه: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، صـ ٦٥.

[١٥] شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، ديوان البوصيري، تح: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١: ١٩٥٥م، صـ ٢٩.

آخر هزلى فكاهي ساخر، فإذا أراد المدح فممدوحه الأوحد هو الطعام هو السيد المقدم الجدير بالمدح والتزلف: فيقول:

يا موز يا قطر زُورا منزلي زُورا قلبي يُحبّكما ما قلت ذا زورا
يا جبن يا مقلي ويا قطر النبات ويا قسطالي الموز أهلا شرفوا الدور
يا صحن بالقشطة الحِقني وخذ عسلا ولا تدع قلب خبزي السُّخن مكسورا
فالخبز يا قوم معشوقٌ وطلعته كأنه البدر إذ يحكيه تدوير
والست بقلاوة الجلاّب إن حضرت فكبّر الله يا مشكاح تكبيرا[١٦]

فالنداء (يا) للبعيد يفيد التعظيم، والشاعر يحب ممدوحه (الطعام) ويكرمه ويبذل له الغالي والنفيس وينتظر لقاء أسياده الكرام الممدوحين بالتكبير وإظهار السعادة والسرور.

ويستحضر _في الذهن_نص المتنبي وهو يمدح سيف الدولة ويعترف بحبه:

وَاحَرّ قَلْباهُ ممّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَنْ بجِسْمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ
ما لي أُكَتِّمُ حُبّاً قَدْ بَرَى جَسَدي وَتَدّعي حُبّ سَيفِ الدّوْلةِ الأُمَمُ
إنْ كَانَ يَجْمَعُنَا حُبٌّ لِغُرّتِهِ فَلَيْتَ أنّا بِقَدْرِ الحُبّ نَقْتَسِمُ[١٧]

لكنّه حبا لممدوح اكتسب صفات المدح العربية من الكرم والشجاعة والإباء والزود عن الإسلام، أما ممدوحو ابن سودون "الموز والقطر والبقلاوة..." فلم يكتسبوا من المدح إلا صفة إطعام الشاعر وسد جوعه، وهي الغاية الأولى لشاعر جائع في العصر المملوكي الثاني؛ بكل ما يحمله العصر من مكتنزات الجوع والفقر والحاجة.

أن ميتانصات هذه القصيدة عند ابن سودون يمكن ردها إلي نص المتنبي وكل نصٍ مدائحي آخر حمل قيم العرب الكبرى من الكرم والشجاعة و... ، تمردا على المتنبي وممدوحه، وتمردا على التراث ومحمولاته، وانتقاما لنفسه ومجتمعه _بالأساس_.

وإذا أردت هجاءً فهناك من الطعام ما استحق الهجاء والشتم والسب من الحوامض والموالح التي يكرهها ابن سودون، وهذا جبن الحالوم يدعو عليه الشاعر بالفقد وانمحاق الذكر، ويعيّره بأنه مرتع للديدان والسوس:

يا جبن حالوم رُح عني وغب أبداً لا كنت في ساير الآفاق مذكورا
استح وانحش ففي المقلي عنك غنى مدوّد القعر رُح ياسوس مدحورا[١٨]

[١٦] الديوان، صـ١٦٠، ١٦١

[١٧] أبو الطيب أحمد بن حسين المتنبي، ديوان المتنبي، ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، صـ٣٣١.

[١٨] الديوان، صـ ١٦١.

أو تلك الأطعمة التي تفضح آكلها بين الناس، فيهجو التوت ويجعل منها نماما أسود الوجه ويهتك الستر ، ويتوعده بالضرب بالشوك والإبر.

وأنت يا توت نمّام بطبعك يا أُسَيود الوجه كم هتّكت من ستر

يستأهل الطعن في الأضلاع مجتمعاً في الصحن بالشوك أو ما طال من أبر[١٩]

ولا يخفى استخدامه للمعجم الشعري من حيث اللغة الحاملة لدلالة الهجاء والحماسة والقتال، وكأن ابن سودون يقف أمام عدو كاشح يتسلح في مواجهته بالإبر والشوك استعدادا لمنافحته ومقاومة اعتداءه عليه، وتظهر السخرية والفكاهة لمَّا يتضح أن العدو الكاشح لم يكن إلا "فاكهة التوت"!

وأما موضوعا الفخر والحماسة الحاملان في الجاهلية لواء وصف المعارك والقتال بين الجيوش، والفخر بالذات والقبيلة تذكيرا بالمآثر والوقائع وتشجيعا للفوارس وترهيبا للأعداء[٢٠]، نجده عند ابن سودون وقد استحال فخر لغلبة الشاعر على أطباق الطعام وسطوته عليها، وتذكيرا لها وتخويفا بما سبق وأكله من مثيلاتها، فيقول عن "الخشتنانك" وهو طعام من عجين محشو:

أراك مُمتَلئ الأحشاء مُجتمعاً يلوح لي عبثاً في سائر الطرق

بارزتني في لبوس طالما قصرت عن سلبها يد من لم يسط بالورق

لئن تجمّعت في ثغري وليتك لو لأجعلنّك بحَدّ البيض ذا فرق

تستنكف المشي تيهاً لن توافيني إلا على الراس يا مشكاح في طبق[٢١]

فالمبارزة ، وحد البيض/ السيف، توافيني... ألفاظ من معجم الحماسة، ومعاني الفخر بالذات في مواجهة الطعام موزعة على القصيدة.

ويفخر بنفسه قائلا:

إذا نزلت بي للشتاء هزاهز برزت بأكل السخن منه أنَازل

فأكسر قرن الفول عند قرانه وآكل منه القلب حين يقابل

فهو مستعد لحربه مع برد الشتاء وهزاته العنيفة، ليس بالسيف ولا بالرمح ولكن بأكل السخن والفول، إلا أن المعجم الشعري للفخر والحماسة هو الحقل الدلالي الذي استدعاه الشاعر واستصحبه، فنجد مفردات القتال والنزال وغيره كقوله "نزلت بي، برزت، أنازل، فأكسر، آكل..." في موضع آخر يتضح في فخره خواء الذات وتكشّفها من كل مستحقات الفخر فلم يعد الشاعر ولا أحد من زمانه

[١٩] الديوان، صـ ١٧١.

[٢٠] راجع: مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج:٣ ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ :٢٠٠٠م.

[٢١] الديوان، صـ ١٦٤.

يملك ما يُفخر به ، فينقلب الفخر عند ابن سودون انكفاء على الذات و تخاذلا في مواجهة مفاخر الفحول السابقين وإن كان في قالب من الفكاهة والسخرية فيقول:

حزينكم وإني ابن أمي وأمي امرأة أبي ما بي خفاء
وإن أبي وأجدادي رجال كما أمي وجداتي نساء[٢٢]

وفي الذهن يقف شامخا مجيدا ، فخر عنترة بن شداد بنفسه:

فَتىً يَخوضُ غِمارَ الحَربِ مُبتَسِما وَيَنثَني وَسِنانُ الرُمحِ مُختَضِبُ[٢٣]

وفخر أبي فراس الحمداني في قومه:

سَيَذكُرُني قَومي إِذا جَدَّ جِدُّهُم وَفي اللَيلَةِ الظَلماءِ يُفتَقَدُ البَدرُ[٢٤]

إن مناط الفخر كان عند الشاعر العربي القديم ينطلق حصرا من الآباء والأجداد وما حازوه من فضل ومجد وما أكمله الأبناء على نهجهم وسيرتهم وما أضافوه إلى هذا المجد القديم، أما ابن سودون هنا فيبرر خواء ذاته من كل فخر ورفعة ، لأنه ليس إلا ابنا لامه التي هي زوجة أبيه فلا مجد ولا عظمة في ذلك، لقد خلا العصر غالبا من مقومات فخر العربي فلا مجد تليد ولا أعمال جليلة، وإنما جهد جهيد لتحصيل المأكل والمشرب والذل والمهانة في طلب الأقوات، أو الانحراف مع تيار الخلاعة والمجون الذي طرقه الناس رغبة في التلهي والتسلية، فأي فخر قد يفخره ابن سودون بعد ذلك إلا تفكها وتهكما.

وأما الغزل عنده فيولي ظهره للمرأة ومحاسنها ليحل محله المحبوب الأول والوحيد وهو الطعام، ويصرح الشاعر تصريحا بهذه الرؤية التي لم تدع نصا منظوما أو منثورا عنده إلا أتت عليه وصبغته بصبغتها، فيقول:

دع قامة الغصن واترك مقلة الريم وانظر إلى عافن الليمون في الريم
ما الموز في نهر الجلاب غدا ممزقا بين تخويض وتعويم
يوما بأحسن من ليمونة طرحت في الخل ما بين تزويد وتحميم
يا طالب الكشف عن أسنى خصائصه لذاك قد رمزوا بالشين والميم[٢٥]

فيقول في الموز مشببا متغزلا :

أيا عرجون موز كالنَّمارق إلى لُقياك وجدي قد نما رِق

---

[٢٢] الديوان، صـ١٧٩.

[٢٣] الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة بن شداد، تح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ : ١٩٩٢م ، صـ ٢٥.

[٢٤] أبو فراس الحمداني، ديوان أبو فراس الحمداني، رواية ابن خالويه تح: سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت،١٩٤٤م، صـ ٢١٣.

[٢٥] الديوان، صـ١٦٢

وجُد بوفا وعود فتى مواف تجد لك قلبه أبداً موافق
وكُن عن وصل صبّك غير آب ورُدّ عليه قلباً فيك آبق
تُرى يا قطر يُروى منك صاد غدا يبدي ودادك وهو صادق
وحقّك ليس ذو عقل بناه لمثلي عنك بل هذاك ناهق[٢٦]

فهو مشتاق إليه مدلَّهٌ به، يدعوه ويستنجزه وعده أن يزوره ويرد عليه قلبه الذي سرقه، بذلك لم يتخلف ابن سودون عن المعجم الغزلي التراثي بل لو رُفع الموز ووضعت "هند أو فاطمة أو أسماء" محبوبات الشاعر العربي القديم لاستقام المعنى وجاد، لقد فرَّغ ابن سودون الغزل من أنثويته ووهبه خالصا للطعام لا يرى سواه مستأهلا للتغزل والتودد، كيف لا ولا شيء يدعو الحزين إلى الابتسام إلا ذكر الطعام....

كم عابسٍ من جوعِه إن بَدَت مواید الأَكل غدا في ابتسَام[٢٧]

بل يقلب _حتى_ الغزل الشائع في عصره (غزل الذكران)، فيجعل الطعام مذكرا أمردا كحيلا لا يصبر على صده وتمنعه؛ فيقول:

ما ملت إلى الحالوم ولا قد مَل من الحلوى أملي
في نظرته أو خطرته فتك بالبيض أو الأسل
لا يسلو حُليو قلبي لا وَدَعته أمَيرد ذا كحل
يزهو كالبدر وقامته كالغصن ولكن لم يمل
إن صدّ فصبري عنه يُرى مثل البانيد مع البلل[٢٨]

والرثاء أصدق الأغراض الشعرية عند العرب كونه ناتجا عن شعور إنساني أليم هو شعور الفقد، فهو عندهم إما أن "يقال على الوفاء... أو على السجية... أما أن يقال عن رغبة فلا؛ لأن العرب التزموا في ذلك مذهبا واحدا"[٢٩] خاصة إذا كان فقد عزيز، فيصعب بل يستحيل قلب العاطفة المسيطرة على هذا النوع من البكاء إلى غيره ،اللهم إلا التصبر أو الرضا بما كتبه الله، إلا أن ابن سودون يفاجئنا ويُبهِتنا عندما يقف أمام موت أمه فيرثيها بأبيات لا تنتج إلا الإغراق في الضحك، التزاما منه بموقفه الساخر دائما في كل شيء حتى الموت، فنراه يرثيها بقوله :

"لموت أمي أرى الأحزان تحنيني فطالما لحستني لحس تحنيني
وطالما دلعتني حال تربيتي حتى طلعت كما كانت تربيني

[٢٦] الديوان، صـ١٦٣، ١٦٤.

[٢٧] الديوان، صـ١٤٣.

[٢٨] الديوان صـ١٥٤.

[٢٩] مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج٣ ، صـ٨١ .

أقول نمنم تجي بالأكل تطعمني أقول إمبو تجي بالماء تسقيني
وربما شكشكتني حين أغضبها وبعد ذا كشكشتني كي ترضيتي"[٣٠]

فهو حزين إلا أن حزنه فكاهي مثله "وما من شك في أن كل من يستمع إلى هذا الرثاء يغرق في الضحك لأن ابن سودون اعتدى على الموقف التقليدي في مثل هذا الظرف اعتداء صارخا"[٣١]، خاصة أن المتوفى هنا هو أمه، والحقيقة أن هذا العدوان هو عدوان على أصعدة عدة أدنها العدوان على الموقف الرثائي.

إن الشاعر هنا يعتدي على التراكم الإبداعي في غرض الرثاء، يعتدي على التراث التقليدي، ويحيل كل مركزياته إلى مشوش غريب ومستهجن، ذلك أن الشاعر يراعي في الإبداع مقتضيات مجتمعه أساسا، ومقتضيات العصر المملوكي الثاني كان التقلب والقلق السياسي والمعرفي والنفسي والحزن والبكاء الممتد في وجدان كل عربي، فكأن الموت في زمانه لم يعد المصيبة الكبرى التي يتفجع منها الشاعر بل تعددت الملمات وشملته الأتراح، فلم يعد الموت أثقلها، بل يعيد تشكيل صورته في نصه ليبدو من زاويته الجديدة مقبولا ومحتملا بل ومضحكا.

ولم يكن سخريته الفكاهية من موت أمه هو سخريته الوحيدة من قداسة الموت بل نراه، يسخر من موت نفسه، داعيا قومه أن يكفنوه "بالكنافة والقطائف" ويحنطوه "بالسكر"**!**[٣٢].

من مثل هذا تظهر مقدرة ابن سودون الإبداعية، وهي وإن تزيت بزي الفكاهة إلا أنها متوحشة فجّة ومرعبة، إن الضحك الذي ينتجه ابن سودون من موقف كهذا هو ضحك يملأه البكاء.

وإن وقف ابن سودون من التراث الأدبي هذا الموقف التفكيكي معتمدا مبدأ الهدم والبناء، فإنه لم يغفل مكونا آخر من مكونات التراث العربي، وعلى القدر نفسه من الأهمية وهو التراث الديني.

٢) المطلب الثاني: السخرية المأخوذة من التراث الديني:

شكَّل التراث الديني رافدا مهما من روافد النص السودوني، من جهة مركزياته ومنطلقاته وخطوطه العامة التي صبغت العصر المملوكي الثاني والتي اكتسب ابن سودون أكثرها بحكم ثقافته وتعليمه، فكان "يلجأ إلى الاستفادة من التركيب القرآني _مثلا_ والبناء على منواله مستغلا حضور التركيب القرآني في وجدان المتلقي... ويستخدم بنية الحديث النبوي الشريف في بناء نصه كذلك، وغالبا ما

[٣٠] الديوان، صـ ١٨٠، يتكرر هذا الرثاء الساخر عند ابن سودون شعرا ونثرا ، وأشارت الدراسة له في مواضع سابقة في موضوع السخرية الذاتية.
[٣١] الفكاهة في مصر ، صـ ٩٠.
[٣٢] راجع الديوان ،صـ٢٤٤.

يوظفه لإنتاج مفارقات على أصعدة عدة منها؛ ما يتصل بالديني المقدس، ومنها ما يتصل بالموقف والدلالة"[٣٣]

وظِّفَ التراث الديني في العصر المملوكي الثاني توظيفا سالبا وكان لرجال الدين دور في تسخير معاني النصوص ولَيِّها لتوافق أهواء السلطة ورجالها، لذلك استحقوا سخرية ابن سودون وتهكمه اللاذع من موضوعاتهم وأساليبهم كما سيأتي. فليس مستغربا_ والوضع كذلك_ أن يحمل ابن سودون حملته تلك على التراث الديني، ليس بوصفه الشريعة الإلهية المقدسة، وإنما بوصفه نصوصا أساء بعض علماء العصر و فقهاءه استخدامها، وجرى توظفيها في العصر المملوكي الثاني بمعاني التسليم والطاعة لما يعانوه من ظلم الحكام وعسفهم، والرضا بأوضاعهم المعيشية المتدنية، ولا يخفى أثر الصوفية وطرقها في شيوع هذا الفكر المتهادن مع الظلم والفقر والتجويع المتعمد اعتمادا على أقوال الإرادة الإلهية المسبقة وعجز الإنسان عن تغيير واقعه، وتسويق الفقر بوصفه سبيلا بذاته لدخول جنات الآخرة؛ ولعل أوضح ما نراه يحمل هذا المعنى عند ابن سودون قوله:

مُد السماط وما قصرت فيه، فكم ... حاولت أن أدعَ الممدود مقصورا

وكم جزمت برفع الصحن مذ عطفوا ... فيه المشوَّر منصوبا ومجرورا

لولا العصى غدت بالضرب فاصلة ... ولم أجد سببا للزحف ميسورا

لقلت من خوفها: ياقلب دعه عسى ... تلقى نصيبك في الفردوس موفورا[٣٤]

ومحل الشاهد يظهر في البيت الأخير الذي يمنِّي فيه الشاعر نفسه بجزاء أخروي أعلى وأعظم/ "الفردوس" إنْ فاته ما كان يؤمل في الدنيا، ومعناه واضح فيه الأثر الديني.

و الصبر أو التصبر ثيمة حاضرة عند ابن سودون بخلفياتها الدينية، كما في معرض حديثه عن قصور فيضان النيل وارتفاع الأسعار وشيوع الغلاء، فيقول:

أترى نرى من ذا الغلاء نصولا؟ ... أم هل نشاهد للرخاء حصولا؟

ونرى جيوشا للبلاء تظاهرت ... قد ولَّت الأدبار ثم نكولا

أترى البسلة والكشيكش جُمَّعا؟ ... والعدس والبيسار والبقلولا؟

فلكم علت، ولكم غلت من الورى ... أسعارها وحشاشتـــــي عللولا

فلأصبرنَّ ولأصبرن ولأصبرنْ ... ولأصبرنْ صبرا يكون جميلا[٣٥]

[٣٣] فرج علام، البنية الحكائية في "الحكايات الملافيق" لابن سودون البشبغاوي ٨١٠ هـ، ت ٨٦٨هـ، مجلة كلية اللغة العربية، بإيتاي البارود، ع:٣٤، صـ ٦٩٠، ٦٩٢.

[٣٤] الديوان، صـ١٦٢.

[٣٥] الديوان ،صـ١٧٨.

يسترفد البيت الأخير في النص السابق الآية القرآنية "**وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**"[٣٦] وقوله تعالى "**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**"[٣٧] ، إن المعنى الذي يلتقي فيه نص ابن سودون مع النص القرآني ليس الصبر الجميل على الإيذاء/ شُح الطعام وغلاء الأسعار فحسب وإنما عقد المقارنة _ بطبيعة الحال_ بين هموم ابن سودون من شح الطعام وغلاء الأسعار، وبين هموم نبي الله إبراهيم عليه السلام، ونبي الله يعقوب عليه السلام، لقد جعل ابن سودون من نفسه نبيا في مواجهة هموم زمانه وإن كان نبيا رسالته السخر والفكاهة فإن هدفه التقويم والإصلاح.

غير أنَّ معنى الصبر السلبي لم يتخلف عن ابن سودون مهما أبدى من تماسك و ثبات في النص السابق إذ نراه يحادث نفسه بين الصبر السلبي/ البقاء في حال الغلاء والشظف، أم الصبر الديني الإيجابي /الرضا مع الضرب في الأرض وكسب العيش، فتسيطر عليه أيديولوجية عصره، ويفضل البقاء الصابر المبتور على الحراك المثمر الخلاق، فيقول:

" قال ابن سهلويه : كنت بمصر سنة أربع وخمسين وثمانمايه، لما نقص النيل أوان الزيادة، للحكمة الأزلية وسابق الإرادة، فعلت الأسعار وغَلَت وغلب على الحبوب غش وغلت وقلَّت الراحة من كثرة العنا ، واستحلى الناس مرارة الفنا، فانتشروا في كل واد يطوون الطرق إلى ساير البلاد، فهممت أن أوافق الرفاق، واضرب معهم في الآفاق، ثم غلبتني عيني ونمت ساعة، فرأيت كان رجلا قد جلس في الهواء، وهو يقول: ابن آدم إذا خصَّ أرضك الغلا، وعمم أهلها البلا، فبادر إلى الرحيل، إن تيسر لك السبيل، وإن أقعدك العجز في بلدك، وعجزت عن قيام أودك، فتكلف في عيش الخفة؛ لتخف عليك الكلفة، واقطع نهارك بالصوم، وليلك بالنوم إلى أن يأتيك الرخا بالقوت، أو يشتد بك البلا فتموت. فلما سمعت مقاله، وفهمت ما قاله، عزمت على ترك المسير، والقناعة في بلدي باليسير، صابرا على الجوع الأليم عالما أن ذلك تقدير العزيز العليم"[٣٨].

يتناص ابن سودون مع قوله تعالى " **ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**"[٣٩] فيبرر تقاعسه وركونه إلى التواكل وتخاذله عن الأخذ بالأسباب بمبررات ظاهرها ديني، فيجعل سبب حدوث البلاء هو "للحكمة الأزلية وسابق الإرادة"، ويسمي بقاءه في البلد المنكوب "قناعة"، ويسمي تركه للطعام بسب الغلاء والقِلَّة "صوما، وصبرا"، فيجعل ابن سودون التخاذل والتقاعس مغلفا بغلالة الديني الذي تستغل السلطة المستبدة سيطرته على النفوس وتلبَّسها به: فجوعهم صوم، وخوفهم تقوى، وذلهم قناعة، وصمتهم

[٣٦] القرآن الكريم، سورة إبراهيم/١٢.

[٣٧] القرآن الكريم، سورة يوسف/٨٣.

[٣٨] الديوان، صـ ٢٢٩، ٢٣٠.

[٣٩] القرآن الكريم، سورة الأنعام/٩٦ ، سورة يس/٣٨، سورة فصلت/١٢.

رضا، ثم يرصد سبيل هؤلاء للتغيير فلا يكون إلا عاجزا مخاتلا لا يقوى عليه سوى الجوعى الفقراء وهو الدعاء "**وتمادى البلا في الناس ذلك العام، إلا أنهم مع ذلك يرجون من الله تعالى عوايد منته، ويبتهلون إليه ولا يقنطون من رحمته...**[٤٠]"وهي غالبا مخلفات الفكر الصوفي المتطرف عن التواكل[٤١] والمهادنة والذي شاع وتغلغل في العصر المملوكي الثاني[٤٢]، ذلك أن الجوع محرك فاعل في الإنسان يحدد طريقه ومسعاه "فإما يصعلكه، ويجعل منه فاقدا للوعي متبلدا ، وإما يحرره تحريرا كاملا، إنه _أي الجوع_ أحد أعمدة التمرد الكبرى في الحياة البشرية، والشاعر لا يرضي إلا أن يكون ثائرا معبرا عن الأعماق الخفية للمكتوين بنار هذا الجوع"[٤٣] وإن كان مستترا خلف الفكاهة والضحك إلا أن النص لم يخف الإعلان عن حال المجتمع وما يقاسيه.

والطعام عند ابن سودون، يجاوز الحاجة الفطرية لسد الجوع وتفادي الهلاك، بل يترقى إلي عظيم يقسم به ويتناص مع صفات أخروية وصفت بها النصوص المقدسة الطعام والشراب في الجنة، فيقول:

و دنان دانية وسِقَت عسلا وسَقَت فشفت عللي

و مجامع حلوى مذ قطعت وصلي نثرت دمع المقل[٤٤]

فالدنان الدانية رديف للقطوف الدانية للصالحين في الآخرة "**قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**"[٤٥] وقد استتبع هذا أن يكون العسل المقصود هو العسل المصفى "**وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى**"[٤٦]،وهذا كله يستتبعه عقيدة الشاعر في جزاء منتظر يعوضه عما يلاقيه من قسوة هذا الزمان، فيضحي في سبيل ذلك بالحراك وبحث سبل التغيير.

وليس النص السابق بدعا من نصوص ابن سودون فكثيرا ما يماهي بين أوصاف ملذات الدنيا وأوصاف النعيم الذي أُعدَّ للمتقين في جنات الآخرة بل نراه يصف بعض ما رآه في أحلامه من تأثير الجوع والفقر بوصف يطابق أوصاف الجنة فيقول مثلا " **حتى دخل بنا إلى دار لا يرى مثلها في اليقظة أبدا، قد بنيت بالحكمة جامعة لأنواع اللطايف، لبنة من قاهرية، ولبنة من قطايف،**

---

[٤٠] الديوان، صـ ٢٣٠.

[٤١] فالتوكل في المعجم الصوفي هو: ترك العبد التصرف في الكون، مع أن الله قد أعطاه ذلك عندما خلقه على الصورة وجعله خليفة، للمزيد راجع : سعاد الحكيم، المعجم الصوفي (الحكمة في حدود الكلمة)، دندرة للطباعة والنشر، مصر، ط١: ١٩٨١م، صـ١٢٢٩

[٤٢] راجع: أحمد صبحي منصور، العقائد الدينية في مصر المملوكية بين التصوف والإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٠م، صـ٤١.

[٤٣] محمد برغوث، البنية الدلالية في المتن الشعري للممدوح عدوان، تم الاسترداد من رابط : anfasse.online.www تاريخ الزيارة: ٢٠٢١/٤/٧ ١١:٣٧م.

[٤٤] الديوان، صـ١٥٣، ١٥٤.

[٤٥] القرآن الكريم، الحاقة/ ٢٣.

[٤٦] القرآن الكريم، محمد/١٥.

سقوفها من الممشك، شبابيكها من المشبك، بياضها من لطاخ المنفوش، طرازها بألوان العقيد منقوش،... فتفرقّ الناس في نواحيها، ويتعجبون من حكمة بانيها..."[٤٧]

واستدعاء الحديث النبوي عن وصف الجنة حاضر وبقوة بين ثنايا هذا الوصف الغرائبي الأسطوري للدار وهو قول النبي _صلى الله عليه وسلم_ " قلتُ : الجنَّةُ ما بناؤُها ؟ قالَ : لبِنةٌ من فضَّةٍ ولبنةٌ من ذَهَبٍ ، وملاطُها المسكُ الأذفرُ ، وحصباؤُها اللُّؤلؤُ والياقوتُ ، وتُربتُها الزَّعفرانُ مَن دخلَها ينعَمُ ولا يبأسُ ، ويخلدُ ولا يموتُ ، لا تبلَى ثيابُهُم ، ولا يفنى شَبابُهُم"[٤٨].

وفتية الجنة الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى " **وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا**"[٤٩]، نراهم في نص ابن سودون بأوصاف تخيّلية مشتقة من النص القرآني، فيقول: "**فيها فتية كالأقمار الزاهرة، آثار السعادة على شمايلهم ظاهرة، قدودهم مياسة، عيونهم نعاسة، لهم من المسك على ورد الخدّ شامات... وهم يتناشدون بأصوات حسنة، ويذكرون من كل قول أحسنه، فدنوت من الغرفة لأسمعهم وقلت ياليتني كنت معهم...**"[٥٠]، الأقوام أو الفتية الذين يصفهم ابن سودون بأوصاف تقع بين فضاء النص القرآني وخيال المبدع هو وصف وربط يحدثه لأجل غاية الإضحاك والسخرية والهزر، إلا أن النص لا يبعد أن يكون انغماسا دنيويا فيما يحسبه تجليا للنعيم الأخروي في دنياه، خاصة وأن العصر انطبع بطابع المادية والانغماس في الملهيات رغبة في تجاهل الملامات الكبرى في العصر.

إن السخرية هنا تنبع من مصدر ثقافي تراثي ديني، يحمل إلى جانب القدسية المنتهكة تجسيدا لواقع العصر الذي سمح لابن سودون أن يقتنص من هذه النصوص ما يلاءم حاجة عصره ويناسب موقفه الفكاهي الجائع، وهذا ظاهر في وقوله عن وصف النعيم في هذه الدار " **فأرى ما تشتهيه الأنفس من المآكل، وتقرّ به الأعين من رؤية المواكل**"[٥١]، فيستعيض عن ما لم يستطع تحقيقه في واقعه المأزوم بالنوم والخيال والأحلام والسخرية والفكاهة من مداد ثقافته التراثية.

وإذا كان استرفد وصف نعيم الجنة لما يحب من الطعام والشراب وسائر الملذات، فقد استعان بوصف عذاب الحجيم لما يكره من الطعام أيضا، فيقول مبررا سبب اختياره أخر حرفين من كلمتي(شرح ومتن) والمشهور اختيار أولهما : "**و إنما اخترت الحرفين الآخرين دون الأولين؛ لأن**

---

[٤٧] الديوان، صـ٢٠٠.

[٤٨] الراوي : أبو هريرة | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الترمذي
الصفحة أو الرقم: ٢٥٢٦

[٤٩] القرآن الكريم، الإنسان/١٩.

[٥٠] الديوان، صـ ٢٠٧.

[٥١] الديوان، صـ٢٠١، وهي عبارة تتناص مع قوله تعالى" **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**" الزخرف/ ٧١.

الأولين إذا جمعا صارا مِشّ، والمش مرق الجبن الحالوم الداء المسموم والطعام الزقوم"[٥٢] والطعام الزقوم هو طعام أهل النار كما عبَّر عنه القرآن الكريم "**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣)طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)**"[٥٣] فهو ينطلق من كراهيته لهذا الطعام ليسبغ عليه هذه الأوصاف الكريهة المرعبة، ويسترفد صورة الجحيم من النص المقدس ويجسده في صورة طعام حامض المذاق لاذع، وهو ما ينتج الأثر الضاحك بين عظم وقدسية طرفي الصورة من المشبه به (الجحيم) و تهافت المشبه (جبن الحالوم)!

ويمتاح ابن سودون من التراث الفقهي الإسلامي عباراته ومقولاته، ويحيلها إلى رؤية فكاهية ساخرة من جهل المتكلمين بها، وإشارة إلى ضحالة علم بعض الفقهاء في عصره، واشتغالهم بسفاسف الأمور وغثّها؛ فيقول محللا سؤال عن الفرق بين الطير والإنسان الذي سماه في نصه (الابنادمه)، ويفصل رده أن الطير يبيض ويطير، وأما الإنسان فلا، ويستطرد الفقيه بطرح سؤال عن "الوطواطة" وهو طائر يطير ولكنه يلد ولا يبيض وهذا الاستطراد هو عادة واضحة عند العلماء والفقهاء في الجواب فيقول " **ثم أورد الأذكياء على هذا أن الوطواطة تطير وتولد أقول بالإجماع على أن الطيرة تطير ولا تبيض والوطواطة خالفت الإجماع وما باضت، ومن خالف الإجماع لا تعتبر مخالفته، والله أعلم**"[٥٤] ، فمصطلح الإجماع والمخالفة والعبارة الختامية(الله أعلم) كلها مؤشرات على التراث الفقهي تستصحب في داخلها ثقافة ابن سودون ورؤيته لمنجزات عصره الثقافية والعلمية، التي لم تجاوز المعتاد والمكرر، وهو ما سنقف عليه تفصيلا في سخريته من علماء عصره.

ولا يبعد عن سخريته من المنجز الفقهي توظيفه النصوص المقدسة التي ترفد المتن الفقهي لحبك الشكل الفكاهي وتعميقه؛ فيقول متناصا مع النص الديني النبوي " **حديث الأحدب البغدادي قال منزهة بن شالويه حضرت ليلة عند بعض الإخوان وكان عنده جماعة من الظرفاء يتناشدون الأشعار ، ويقطعون الليل بوصل الأسمار فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل قد ابيضَّت لحيته، وظهرت حديثه، فوقف بينهم...** "[٥٥] والنص يستحضر في الذهن حديث جبريل _عليه السلام_ "**عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر**

[٥٢] الديوان ،صـ٣٠٥.

[٥٣] القرآن الكريم، الدخان/ ٤٣: ٤٦

[٥٤] الديوان، صـ ٣٢٢، ٣٢٣.

[٥٥] الديوان، صـ ٣٥٢.

السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم...."[٥٦] فقد استحوذ نص ابن سودون على البنية الحديثية وفرغها من مكتنزاتها_ أو أودعها في هامش الذهن_ ليضع متنه الساخر رغبة في التلبس بالمقدس واستحضارا لصورة نمطية من الجلسات الثقافية التراثية أخفق العصر في استحضارها بشكلها الجاد، فحاول ابن سودون استحضارها بصورتها الهازلة ليضعها في أذهان العامة نموذجا يتطلع العصر لبلوغه معنٍ ومبنٍ.

٢. المبحث الثاني: ألوان السخرية من موضوعات العلماء والمثقفين وأساليبهم:

- **توطئة:**

أراد ابن سودون أن يوجهه علماء عصره ومثقفيه إلى ما يشغل الأمة ويستنزفها، ويحولهم عن المكرور المعاد من الموضوعات والأساليب إلى ما يشبه تجديدا في الخطاب العلمي والثقافي في عصره، فاستخدم السخرية والفكاهة ليلفت انتباههم إلى وجوب التجديد ومواكبة الحوادث والمستجدات.

المطلب الأول : السخرية من موضوعات العلماءوالمثقفين:

وقف ابن سودون في ديوانه على **موضوعات العلم التي طرقها العلماء**، وتخيلوا أنها ذات بال عند جماعة العامة في عصره، فيحولها ابن سودون بحسه الساخر إلى نص غرائبي في فحواه ومضمونه؛ فيقول: "**وقال ابن أعشب المنسوتي: من صلى العشاء الآخرة في جماعة ومكث بعدها ماية وعشرين درجة، ثم أكل خمسماية بيضة بغير ملح ، ونصف قنطار من نيدة الصعيد، وسبعة وخمسين رطلا من كسب الشيرج، وسبعة أقداح من أقماع الجميز متبلة في طحينة، فإنه لا يرى جوعا بقية ليلته، ولو لم يكن أكل مع ذلك خبرا ، فإن عاش إلى السحر لم يأمن من الأمراض المختلفة ، وكان من حصول العافية في أمان**"[٥٧]، فإذا ما انشغل علماء العصر وفقهاءه بما لا ينفع مجتمعهم، فإن ابن سودون يرشدهم إلى شاغل الناس من الجوع والفقر فيجعل من هذا الواقع المأزوم فكاهة وسخرية، ثم انظر إلى الناتج الذي ينتظر من يطبق هذه النصيحة "لا يأمن من الأمراض المختلفة، وكان من حصول العافية في أمان"! تكريسا للتناقض و مخالفة واقع الأشياء وهو ما يثمر ضحكا وفكاهة.

ويحتل الطعام مجالا عريضا من مسائل الناس في قصص ابن سودون فهو هاجسهم الأكبر الذي يتخوف الناس فقده، فيشكل نصوصه من حقله الواسع الشهي، وهذا أحد العامة (ابن سوام القيرواني) يسأل العالم العلامة (ابن ديدنه) عن قول مشهور يشغله ويقضُّ مضجعه وهو :" **لو كان**

[٥٦] الراوي : عمر بن الخطاب | المحدث : البيهقي | المصدر : السنن الصغير للبيهقي | الصفحة أو الرقم | 1/14 : خلاصة حكم المحدث : إسناده على شرط مسلم.

[٥٧] الديوان، صـ٢٠٢.

الرز رجلا لكان حليما، ما معنى ذلك ؟ وما الذي ظهر من حلم الرز؟ لم قيل هذا فيه؟ فقال: لأنه موافق صالح صابر على ما يُصنَع به، فتارة يعمل بتعريق الأوز أو الدجاج أو غيرهما من اللحوم... وتارة يعمل بالحليب الخالص...وتارة يعمل بحل السكر أو القطر المكرر..."[٥٨]

إن الأرز في رؤية ابن سودون حليما صابرا على ما يصنع به حاله حال الناس في زمانه، مهما تبدل عليهم السوء فهم صابرون على كل حال، فيضمر في الجواب ما يعجز عنه السائل والمسئول.

والحكماء في زمان ابن سودون لم يغفلوا دورهم في النصح والإرشاد، ونقل خلاصة تجاربهم في الحياة إلى الناس إلا أن هذه التجارب والحكم والنصائح لم تجاوز البديهي الظاهر، ولم تناقش إلا السخافات والمغالطات الهازئة وهذا قول بعض الحكماء في زمان ابن سودون "**أيها الناس رحمكم الله، اعلموا أن الماضي ما قد فات، والمستقبل ما هو آت، ذهب ناس وبقى ناس، وقد صحَّ عن العقلاء ممن بقى وذهب أن الفضة لا تشبه الذهب، وأن الحوت من السمك ولو مُسك بالشبك ... ألا وإنكم الساعة هذه في البهطلة، وبين أيديكم روضة عن الأشغال معطلة،...، وقد حال بينكم وبينها ما تشاهدونه من هذا النيل الذي لا ينقص بشرب من شرب منه ولو كان الفيل ، فمن أراد الوصول إليها ، والوقوف عليها_ وهو لا يحسن السباحة_ فليركب في سفينة ذات ألواح ودسر، تحمله في ذهابه وإيابه، وتدفع البلل عن ثيابه، فمن خالف ومشى على الماء و اخترق فابتل وأدركه الغرق فلا يلومنَّ على ذلك أحداً من الناس**"[٥٩]. إن حكمة هذا الحكيم تافهة سطحية ونصحه بديهي واضح، وقد قصد ابن سودون إلى هذا الهزر والخراع كما قصد الامتصاص من نص حكمي قديم يراه الناس علما على الحكمة المتجذرة في نفس العربي والسابقة لأوانها والمستشرفة لحدود المستقبل[٦٠]، ليضع أمام القارئ نصا مكتوبا يستحضر في البال نصا غائبا ، ويترك للذهن مهمة المقارنة الكاشفة عن مدى الهوة بين حكيم زمن الجاهلية وحكيم العصر المملوكي في نص ابن سودون.

والحكمة بزيها الفكاهي الساخر موضوع مكرر في نص ابن سودون، فيقول من نصٍ آخر :" **قال عندبة بن أبي الحكم في كتابه المسمى بزبد الحكم يروى أن رئيس زمانه وحكيم أوانه وهو معروف عند من يعرفه، ذكر أن ملكا كان قبل الطوفان قد عمر خمسماية ونيفا وعشرين سنة من غير الليل ، فلما أدركته الوفاة تولَّى بعده ولده، وأمر بعرض الخزائن والذخائر التي لأبيه،**

---

[٥٨] الديوان، صـ٢١٨

[٥٩] الديوان، صـ٢٢٥، ٢٢٦.

[٦٠] النص المقصود هو خطبة قس بن ساعدة الإيادي، التي كانت علما على فن الخطابة في العصر الجاهلي راجع: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١: ١٩٣٣م، ص٣٥.

وإذا في بعضها صندوق من الزجاج الأحمر فيه كيس من الحرير الأخضر، في الكيس لوح من الياقوت مكتوب فيه بالذهب: اعلم أيها الإنسان المخصوص بالعقل والبيان،إنمن الحكمة التي شهد بصحتها العقل والنقل، أن من كان جايعا وأكل ما يكفيه شبع، ومن حدَّث ما لم يكن به صمم سمع، من طرح ثيابه في النار احترقت، من ألقى من الحجارة في الماء غرقت، من جُرحت إبهام رجله اليسرى فإنه يأكل بأسنانه، ومن سترت عينه فإنه لا يرى بحاجبه من جلس إلى جانبه، ومن أنكر من ذلك شيئا لم يكن حكيما"[٦١] سيل جارف من المعارف البديهية يعرضها في صورة الاكتشاف المبهر والعلم الكشفي، هذه هي الحكمة في عصر سادته الجهالة، وفشا فيه الخرفات وكثر فيه البهاليل والحمقى وتزيوا بزي العلم والحكمة، وفي كل هذا لا يطمح ابن سودون للضحك والفكاهة وحسب وإنما التعريض بعلماء عصره وحكمائه الذين تخلوا عن دورهم الجاد الفاعل وركنوا إلى السلطة والمال، فاستحقوا هذا التعريض اللاذع والتهكم الساخر.

ولم يفت ابن سودون من جملة من يتناول موضوعاتهم بالسخر والفكاهة والهزر أن يقف أمام الفقهاء إمعانا في توجيههم إلى آلام الشعب والوقائع الأجدر بالمتابعة والمحايثة، ويرشدهم إلى تجديد الخطابي الثقافي المكرر البالي؛ فهذا عامي من الفضلاء يسأل عن حكم من امتنع عن السحور حتي يسمع "طبلة المسحِّر" وهو كثير العناية بلحيته وعمامته، ويوقفنا ابن سودون أمام إجابة الفقيه العجيبة التي توصله مجموعة من الاستنتاجات والقياس المغلوط إلى نتيجة مفادها "**ودعواه أنَّ جواز السحور منحصر في سماع الطبيلة خرقٌ للإجماع، فيجب عليه خرق عمَّته وحرق لحيته والحالة هذه والله أعلم.**"[٦٢]

فالمسارعة إلى إخراج السائل من دائرة الجماعة ونفيه خارجها وجهه توجَّهها الفقهاء في عصر ابن سودون فراح يسخر من فاعليها على هذه الطريقة ليردهم إلى الجادة.

ويسخر من حلقات العلم التي لم تعد تضم إلا المكرر والمعاد من المسائل والإشكالات والجهل المحدق بمجتمعه، وضحالة الفكر والعقل يومئذ " فقد كان ابن سودون مغرما بتقمص شخصية مدعي العلم أو المعرفة الذي يبدو دائما في مظهر العارف المتحذلق أو المتفيهق... فإذا به واقف عند بيدهيات البدهيات وتفاهة الأجوبة وسخف القضايا وعبثية الحقائق التي اكتشفها... وهذه

[٦١] الديوان، صـ٢٠٥ ، والحكاية مكررة بلفظها ومعناها في الديوان عينه ، صـ ٢٢٦.

[٦٢] الديوان صـ٣٣٧.

المغالطات والسخافات التي يستتر وراءها ابن سودون تلفت نظرنا بشدة إلى ضرورة الالتفات بوعي شديد إلى المغالطات والسخافات والرذائل الحقيقية التي يظفر بها مجتمعه في عصور المماليك"[٦٣].

فنراه يقف أمام سؤال بعض العامة عن نحوي فيقول: "**وما قولكم في نحويّ كان يقرر في الأسماء وأن من خصايصها التنوين فقيل له ما مثال ذلك؟ قال: وزةٌ وحمارةٌ وزرافةٌ وبيضةٌ؟ فما وجه اختياره لهذه الأسماء دون غيرها؟ فأي مناسبة بين الوزة والحمارة وذكْر البيضة بعد الزرافة؟ .... وأما تمثيل النحوي بما ذكر فلا اعتراض عليه ولا تلزمه المناسبة بين الأمثلة ، وقد سبقه الحريري إلى ذلك حيث يقول في تمثيل الأسماء مثاله زيدٌ وخيلٌ وغنمٌ، إذا لا مناسبة بين الثلاثة أيضا ، اللهم إلا أن يقال وجه المناسبة بينها أن الكل خلقه الله على أنَّا نقول فيما ذكره من الصناعة الترقي من الأدنى إلى الأعلى...**"[٦٤] فلا أعجب من السؤال إلا الجواب الذي راح ينظِّر للبلاغة في كلام النحوي ويبحث عن المنطق في الجمع بين الأمثلة، ويترك سؤال العلم الأصولي (قواعد النحو) الذي سَأمه الناس وانفضوا عنه إلى القشور و الفارغ من القول.

ويشارك ابن سودون الفلاسفة موضوعاتهم، فينقلها عنده من جدليات الكون والمحرك الأول وفلسفة الموت والحياة إلى جدل يلائم واقع العصر ويكشف استفحال الجهل حتى بين طبقات العلماء و الفقهاء والفلاسفة ؛يقول " **كتب آخر: ما قولكم هل البيضة من الدجاجة أم الدجاجة من البيضة فأجبت: لا نقل عندي في المسألة والأمران محتملان والذي يظهر أن الدجاجة كانت أولا ثم باضت وحصل التناسل ، ولا يختص ذلك بالدجاجة بل الوزة أيضا كذلك والله تعالى أعلم**"[٦٥] ويسترسل الفيلسوف في إثبات حجته بالخرافات الشعبية إمعانا في السخر والفكاهة ومكاشفة لروافد العلم في ذلك العصر والتي لم تترفع عن خرافات العامة ومعتقداتهم، بل امتزجت بها.

ومن موضوعات العامة وسؤالاتهم عند العلماء إشكالات سفسطائية لا أساس لها ولا غاية، ولكنها تكشف من جوانب عن الحالة العلمية المتردية والجو الثقافي المتهافت؛ ومن ذلك السؤال عن صفة خلقية وهي "البرود" وثقل الظل؛ فيقول "**ما قولكم في قول الناس بمن يستبردونه ما أبرد لحيته وما أسقعها؟ فلم خُصَّت اللحية دون غيرها؟ ... وإذا أرادوا المبالغة قالوا: يكذب في صدر لحيته... وهل هي كسبية أم خلقية؟** "[٦٦] فالسخر من صفة خلقية مذمومة مكرور ومعروف

[٦٣] الشعر الشعبي الساخر في عصر المماليك، صـ٢٠٨ ،٢٠٩ . والفكرة نفسها يناقشها د/ أحمد صادق الجمال فيقول: أن هذا التحامق الذي يضحك به الشاعر عصره لا يجعلنا نضحك بقدر ما نقرأ فيه تاريخيا للعصر الذي قيل فيه ، ونشاهد فيه تصويرا للحياة السياسية وربما الاقتصادية أيضا، للمزيد راجع كتاب: الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م، صـ ٢٠٤ بتصرف.

[٦٤] الديوان، صـ٣٤١، ٣٤٢.

[٦٥] الديوان، صـ ٣٤٦.

[٦٦] الديوان، صـ٣٥٠

لغايات الإصلاح والتقويم، ولكن مدار التجديد عند ابن سودون، هو مناقشتها ومحايثتها كأنها فرع عن أصل العلوم وتناولها كسؤال علمي منطقي، يبحث فيه بمنهجية علمية سليمة، فيقول في الجواب: "**وأما هل هي كسبية أم خلقية فالناس أطوار فمنهم المكتسب لها، ومنهم المطبوع عليها وقد يتكلَّفها بعضهم ولا ينطبع فيها، فما من تكلَّف شيئا كان صابيه، وسقاعة الدقن ماهي سابيه، فأعلم ذلك.**"[٦٧] لم يكتف ابن سودون بمعالجة إشكال سقاعة الدقن، وتخصيصها باللحية ومناقشة الجدل بين الاكتساب والطبع فيها، بل يعمم حكمته ويفصل بعلمه الفصل المبين، فليس كل من رام اكتساب صفة، بلغ ما يروم، وعلى هذه المحايثة العلمية والصبغة المنهجية لا يقترب ابن سودون من العلم إلا بقدر ما يلامس الفكاهة والتهكم والهزر، فالعلاقة بينهم طردية دائما، كلما زادت صبغة العلم وأسلوبه وطريقته في معالجة المتهافت الرديء، كلما ازدادت فكاهية النص، وعمَر ميدان السخر والهزر فيه، لهذا لزم أن نقف عند السخرية من أساليب العلماء في ديوان ابن سودون:

المطلب الثاني: السخرية من أساليب العلماء والمثقفين:

لم يقف ابن سودون عند المعارف و موضوعات الثقافة الجمعية ومنتسبيها من العلماء والفقهاء والمثقفين في عصره ، بل راح "يستخدم مصطلحات بعض الشيوخ لعصره في إجاباتهم من مثل: "لا نقل عندي في المسألة، والأمران محتملا، والأظهر،..."[٦٨] ويركب على أساليبهم الجافة هزره، ويضع في قوالبهم العلمية الجامدة موضوعاته الساخرة والفكاهية من وصف الطعام والختان والتحامق والمجانة والخلاعة، "وعلى هذا النمط كان ابن سودون يداعب أصحاب العلوم والفنون في عصره، كما كان يداعب غيرهم من أهل مجتمعه..."[٦٩]

ومن سخريته بأساليب العلماء والفقهاء استخدامه لازمة "كتب أخر ما قولكم في... أو كتب بعض الفضلاء ما صورته" وأكثر ما ورد في باب "التحف العجيبة والظرف الغريبة" ولازمة الجواب، "فأجبت بـــ ..." أو والجواب عندي.... " فيقول مثلا: " **وكتب آخر ما صورته ما قولكم في رجل قيل له إن فلانا يريد أن يربطك فقال أنا ابن عنزة؟ وهذه كلمة كثيرا ما يقولها الناس فما وجه تخصيص البنوة بالعنز دون غيرها من البهايم ؟... والمسئول بسط الجواب، فأجبت أعلم أن البنوة على نوعين بنوة ولادة وبنوة رضاع، ليس المراد هنا بنوة الولادة إذ لم يبلغنا عن ثقة أن**

[٦٧] الديوان، صـ٣٥٢
[٦٨] الفكاهة في مصر، صـــ ١٠٥
[٦٩] المرجع نفسه والصفحة.

شيئا من البهايم ولد آدميا فتعيَّنت بنوة الرضاع، وإذا تقرر ذلك أقول تخصيصه بالعنز ظاهر فقد اشتهر عن غير واحد أنه رضع من ثدي العنز وربما سمى بعضهم بابن العنز لذلك..."[٧٠]

لقد أمعن ابن سودون في السخرية فكأنه فرغَّ قالبا علميا مما فيه وأعاد حشوه بالتفاهات والسخافات؛ إذ يقدم للجواب بتقسيم البنوة واستعمال المنطق والتواتر عن ثقة في إثبات نفي بنوة الإنسان للعنز! و يوظف العبارات العلمية المشهورة في حقلها " وإذا تقرر ذلك أقول... فقد اشتهر عن غير واحد..." والتي وردت أيضا في أكثر نصوص الباب[٧١].

ويعمد ابن سودون إلى مظهر العلمية وهو يقف ناقدا وممحصا لبعض نصوص العامة الشعبية الضحلة وهي:

أبـــــو قـــــــردان زرع فـــــــدان ملوخيـــــــا وبادنجـــــــان

فلا يفوته أن يأسس لمنهجه في التناول والتحليل، فيختار أن يشير إلى المتن والشرح بآخر حروفهما، ويورد لذلك المبررات والدواعي " **وإنما اخترت الحرفين الآخرين دون الأولين؛ لأن الأولين إذا جُمعا صار مِشّ، والمشُّ مرق الجبن الحالوم الداء المسموم والطعام الزقوم، والأخيران إذا جُمعا صارا نحّ و النح هو الدح الذي لا يقول لطالبه أحّ، وهو كل ما فيه حلاوة"**[٧٢].

وهي صبغة منطقية إلا أنه اعتمد على جشعه ونهمه للطعام في التعليل التبرير و جعله مناط الأخذ والترك عنده "وعلى هذا النحو يعتمد ابن سودون دائما في فكاهته على الهزل والهذر وسرده على شاكلة أدعياء المعرفة سردا يلغي معه المنطق المستقيم إلغاء، وينتكس كل ما نؤمن به من ميزة التفكير السليم انتكاسا، وهو انتكاس لا نلم به حتى يفضي بنا إلى الضحك و الإمعان فيه"[٧٣].

ويجانب المنطق أيضا عندما يبرر نقده لبعض العبارات الشعبية وتركه للبعض الآخر؛ فيقول" **وهذا آخر ما ثبت عندي في المتن . وقد رُويت فيه زيادات كثيرة بعد هذا لا يوافق بعضها بعضا، فروى بعضهم، عيط عيطة فلق الحيطه، وروى آخر قال الجندي إيش لك عندي؟ وروى آخر راح الشام دخل الحمام سرقوا تيابه خرج عريان، إلى غير ذلك من الزيادات، فأضربت عنها لعدم صحتها عندي والله تعالى أعلم بالصواب"**[٧٤]

وبأسلوبه قريب الشبه بأسلوب العلم وطريقته ينفي الصحة عن هذه العبارات فيفترض المتلقي صحة ومنطقية العبارة الأولى، ويخلق حالة من الجدل بين الهزل والجد، ثم يلبث المتلقي أن يتبين

---

[٧٠] الديوان، صـ ٣٤٠، ٣٤١.

[٧١] راجع الديوان: صـ٣٠٥

[٧٢] الديوان، صـ٣٠٥.

[٧٣] الفكاهة في مصر، صـ٨٨.

[٧٤] الديوان، صـ ٣١١، ٣١٢.

سخافة الجدل، فيغرق في الضحك وتفلح مفارقة ابن سودون في إنتاج الأثر المطلوب وتوليده." وكأنك تستمع إلى مهرج من مهرجي التمثيل الهزلي، لا يزال يطرفك بغبائه، وبما يأتي من مخالفات صريحة لمنطق الواقع"[٧٥]

وفي ترجيحه بين الآراء يستخدم عبارات كـ "والذي يترجح عندي أن... "[٧٦] أو "والأمران محتملان، والذي يظهر أن... "[٧٧]، فيما ينهي مطارحاته وأسئلته _غالبا _ بعبارة "والله أعلم"[٧٨] إمعانا في السخرية والهزر، ذلك أنها لازمة العلماء في الرد، وهي مشعرة بالتواضع على غزارة العلم وتفصيل الجواب!

لقد هتك ابن سودون حرمة العلم، وفجَّر قواعده وموضوعاته وأساليبه، وهو هتك وتفجير يتجاوز به حدود العلم، إلى منتسبي العلم أنفسهم ولعصره وزمانه الذين هم بيئة هذا العلم ومكوناته الأولى، وهو ما يقصدهم ابن سودون غالبا بسخريته وفكاهته.

- **الخاتمة :**

شكلت الثقافة بفضاءاتها المتعددة موضوعا من موضوعات الفكاهة والسخرية في نص ابن سودون بوصفها مكونا ذا تأثير عميق في الشخصية المملوكية، ونسقا مستقرا وراكدا يعادل نسق السلطة الحاكمة تأثيرا وسطوة، فاستخدمها الشاعر ليقدم من خلال محمولاتها شكلا جديدا من أشكال الرفض والمعارضة في العصر المملوكي الثاني، وقد وقف البحث على مجموعة من **النتائج** منها:

١. أثر مصادر التراث المتنوعة (الدينية والأدبية) على السخرية الثقافية والفكاهة عند ابن سودون في إبداعه الأدبي.
٢. استطاع ابن سودون نقل مجالات التراث وأشكاله الأدبية والدينية...من حيزها الصارم والقار إلى هزلي ساخر وفكاهي لأغراض تعبيرية رافضة ومعارضة.
٣. سَخَرَ ابن سودون من الموضوعات والأساليب التي استهلكها رجال العلم والدين في عصره رغبة في تجديد الخطاب الثقافي الذي تهادن مع السلطة القامعة وانحاز إليها ضدَّ الشعب.
٤. أثر موضوعات العلماء والمثقفين وأساليبهم في سخرية ابن سودون وفكاهته المتنوعة.
٥. مساهمة ابن سودون في التعبير عن مشكلات مجتمعه وقضايا بيئته وعصره من خلال ابداعه المتمثل في السخرية الثقافية.

---

[٧٥] الفكاهة في مصر، صـ٨٩.

[٧٦] الديوان ،صـ٣٠٨.

[٧٧] راجع الديوان، صـ٣٤٦.

[٧٨] راجع الديوان، صـ ٣٢٣،٣٣٨، ٣٤٤ ،٣٤٦،٣٤٧، وغيره.

التوصيات:

١. مازال الخطاب الإبداعي في العصر المملوكي الثاني عموما وعند ابن سودون خصوصا بحاجة لاستنطاق النصوص والوقوف على رؤاها الثقافية والفكرية.

٢. تحتاج الخطابات الأدبية في العصر المملوكي الثاني إلى إجراءات نقدية جديدة ومغايرة تعالج منطلقاته وأطره المعرفية وتجاوز البلاغي والجمالي النسقي.

- **المصادر والمراجع:**

– **أولا:**

- القرآن الكريم
- الأحاديث النبوية
- ابن سودون البشبغاوي، ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، تح: منال محرم عبد الحميد، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٢: ٢٠١٠.

– **ثانيا: مصادر البحث ومراجعه:**

١. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١: ١٩٣٣م.

٢. أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.

٣. أحمد صبحي منصور، العقائد الدينية في مصر المملوكية بين التصوف والإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٠م.

٤. أنور الجندي، الثقافة العربية المعاصرة في معارك التغريب والشعوبية، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦١م.

٥. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢ :١٩٨٤م.

٦. حسن البوريني، شرح ديوان ابن الفارض جمعه: رشيد بن غالب، عبد الغني النابلسي، المطبعة الخيرية ، القاهرة، ١٨٩٣ م.

٧. الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة بن شداد، تح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ : ١٩٩٢م.

٨. سعاد الحكيم، المعجم الصوفي (الحكمة في حدود الكلمة)، دندرة للطباعة والنشر، مصر، ط١: ١٩٨١م.

٩. السيد محمد بدر الدين العلوي، المختار من شعر بشار (اختيار الخالدين)، شرحه: أبو الطاهر التجيبي البرقي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٤م.
١٠. شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري ، ديوان البوصيري، تح: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١: ١٩٥٥م.
١١. شوقي ضيف، في الشعر والفكاهة في مصر، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
١٢. صفي الدين الحلي، ديوان صفي الدين الحلي، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، (د.ت).
١٣. عبد العزيز شرف، الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، ط١: ١٩٩٢م.
١٤. عبد الوهاب البياتي، الشاعر العربي المعاصر والتراث، مجلة فصول، مجلد١، عدد٤، يوليو ١٩٨١.
١٥. علي عشري زايد، توظيف التراث العربي المعاصر في شعرنا المعاصر، مجلة فصول، مجلد١، عدد١، أكتوبر، ١٩٩٥.
١٦. أبو فراس الحمداني، ديوان أبو فراس الحمداني، رواية ابن خالويه، تح: سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت،١٩٤٤م.
١٧. فرج علام، البنية الحكائية في "الحكايات الملافيق" لابن سودون البشبغاوي ٨١٠ هـ، ت ٨٦٨هـ، مجلة كلية اللغة العربية، بإيتاي البارود، مج:٣٤، ع:١، ٢٠٢١م، صـ ٦١٥: ٧٠٣
١٨. كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، حققه: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
١٩. ليلي عبد الجواد إسماعيل، ظاهرة تعاطي الحشيشة ومكافحتها في مصر المملوكية، مجلة المؤرخ العربي، ع١٦، ٢٠٠٨م.
٢٠. محمد برغوث، البنية الدلالية في المتن الشعري للممدوح عدوان، تم الاسترداد من رابط: anfasse.online.www ، ٢٠٢٢/١٢/٢٨ ١١:٣٧م.
٢١. محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠١٥.
٢٢. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج:٣ ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ :٢٠٠٠م.